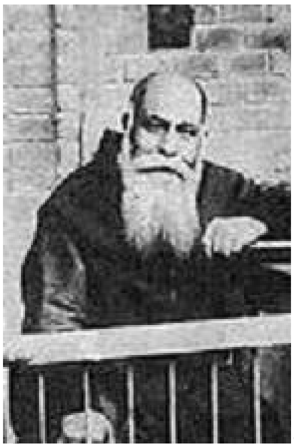
الكرملي

محطات ثقافية

«الكرملي» في دراساته الكوردية

د. عماد عبدالسلام رؤوف

الأب أنستانس ماري الكرملي (١٨٦٦-م ١٢٤٧هـ) من علماء العراق البارزين، نشأ في بغداد، ودرس في لبنان، وأتم دراسته في جامعات بلجيكا وفرنسا، وانتخبته محافل ومجامع علمية عدة عضواً فيها، وشارك في مجلات علمية مختلفة، وألف كتباً مهمة، كما حقق مخطوطات قيمة، فضلاً عن نشره العدد الوافر من الدراسات والمقالات ما ملأت عناوينها ـ فقط - مجلداً كاملاً، وأصدر مجلة علمية أدبية رائدة، هي مجلة (لغة العرب) التي أسهمت في نهضة العراق الثقافية في مطلع القرن العشرين مساهمة جلية.

وقد عرف الأب الكرملي بولعه الشديد بدراسة اللغات وأصولها ومقارنتها، فدرس اللغة العربية، وتوغل في البحث في أعماقها، وألف في علومها خيرة مؤلفاته وبحوثه، إلا أنه كان في دراسته هذه متفتح الفكر على اللغات الحية الأخرى، يقارن ويحلل ويناظر، فأتقن من اللغات الأوربية: الفرنسية والإنكليزية والإيطالية واليونانية واللاتينية والإسبانية والألمانية، ومن اللغات الشرقية: التركية والفارسية والحبشية والأرمنية والسريانية والعبرية والصابئية.

على أن اهتمام الأب الكرملي لم يقتصر على هذه اللغات فحسب، بل تعداها إلى لغات أخرى غيرها، حتى انه جمع ذات مرة ما يقرب من مئة ترجمة في لغات شتى لعبارة واحدة، مؤلفاً في ذلك كتاباً مجموعاً طريفاً في مقارنة اللغات، ما زال مخطوطاً، وقفنا عليه في المركز الوطني للمخطوطات في بغداد.

وكانت من اللغات الحية التي اهتم الأب بدراستها وتتبع تاريخها وآدابها، اللغة الكوردية، فقد تتبع كثيراً مما كتب عنها في مختلف اللغات الأوربية، ولخصه، وترجمه، وقارنه، وأضاف إليه من خبرته فيها.

وكان من أول ما كتبه في هذا الصدد، كتاب ألفه سنة ١٨٩٥ عن الإيزدية، تناول فيه قبائلهم ولهجاتهم الكوردية، وتطرق فيه إلى موضوعات مختلفة، مثل التعريف بهم طبقاً لمذهبهم، طريقتهم وعوائدهم، اعتقادهم بالمسيح ومعتقدات المسيحيين، طوافاتهم، سناجقهم، شيوخهم، الزي والملبوس عندهم، الزواج ودفن الموتى لديهم، أخلاقهم وعوائدهم وصنائعهم وتثقيفهم، أقسام قبائلهم، تقاطيعهم وسحناتهم، أسلحتهم، مساكنهم، محل وجودهم وقراهم ومدنهم، تاريخ أحوالهم، وقد نشر أغلب هذا الكتاب المهم مسلسلاً في مجلة المشرق اللبنانية سنة ١٨٩٩.

ويبدو أن اهتمام الكرملي بتاريخ الإيزدية، وتتبع كل ما يتعلق بقبائلهم ومعتقداتهم، جره فيما بعد إلى البحث في تاريخ الكورد مباشرة، ففي سنة ١٨٩٧عقد النية على تأليف كتاب خاص بهم، ولكنه ما ان كتب العنوان (تاريخ الكرد) على الصفحة الأولى من كتابه، حتى عدل عن تحقيق خطة هذا البحث، لنقص في مصادره وأصوله، وشرع في التمهيد له بجمع ما ينقصه من تلك المواد، فجعل من كتابه المذكور دفتراً يجمع بين دفتيه ما يجده من مصادر نادرة، وسياحات مهمة، ودراسات متنوعة، مضيفاً على العنوان الذي كتبه عبارة جديدة هي (تحقيقات عن الكرد من تعريب الأب أنستاس ماري الكرملي، ابتدأ بها في ٥ شباط ١٨٩٧).

وبعد زهاء أربعة وعشرين عاماً أعاد الكرملي الكرة على هذا الموضوع، فابتدأ في ٢٥ تموز من سنة ١٩١٩ بتأليف كتاب سماه بالعنوان القديم نفسه، وهو (تاريخ الكرد)، ولكنه قسمه إلى ثلاثة فصول، تحدث في الأول منه عن جغرافية كوردستان: حدودها، مناظرها وهوائها، نباتاتها. وخصص الفصل الثاني للحديث عن تاريخ الكورد قبل الإسلام، متناولاً فيه المباحث الآتية: تاريخهم، أخبارهم، تغلبهم، ملوك بابل الكوشيين، عناصرهم القومية، ديانتهم، شهادات الأقدمين في حق الكورد الأولين، أما الفصل الثالث فتحدث فيه عن تاريخ الكورد بعد الإسلام، وعشائرهم، وتطرق فيه إلى موضوعات في اللغة الكوردية وآدابها اللغوية.

ويتألف الكتاب من ١٠٢ صفحة، وقد أشار إليه رفائيل بطي باسم (الكرد قبل الإسلام) في مقالة له نشرها سنة ١٩٢٤، مما دل على أن الأب لم يكن قد أنجز من كتابه آنذاك سوى الفصلين الأولين، اللذين يبحثان في جغرافية كوردستان وتاريخ الكورد قبل الإسلام فحسب. كما وصفه كاملاً كوركيس عواد، وهو يفهرس آثار الكرملي المخطوطة والمطبوعة، بيد أنه لم ينوه بمحل وجوده، على خلاف منهجه في النص على ذلك، وليس في كتب الكرملي المنتقلة إلى مكتبة المتحف العراقي في بغداد (المركز الوطني للمخطوطات الآن) هذا الكتاب، وحينما عرضت مؤلفات الكرملي في معرض خاص أقيم في هذه المكتبة سنة ١٩٧٠ بمناسبة مرور ثلاث وعشرين سنة على وفاته، لم يكن بين معروضاته، ولعله ما زال محفوظاً في كتبه في دير الآباء الكرمليين ببغداد.

وحتى يظهر كتاب الكرملي عن تاريخ الكورد لا يبقى أمامنا إلا العودة إلى أصوله ومسوداته التي تضمنها المجموع المحفوظ في المركز الوطني للمخطوطات، وقد عدنا إليه فعلاً منذ مدة، فوجدناه يحتوي على نخبة مختارة من الفوائد والملاحظات عن الكورد ولغتهم، استقاها المؤلف من مصادر شتى، وهي:

١ـ كوردستان كما وصفها الرحالة الإنكليزي جسني في كتابه (بعثة لمسح شواطئ الرافدين) وتشغل الصفحات ١-١٧.

٢ـ سليمان باشا أبو ليلة، وهو والي بغداد، معربة عن كتاب (تاريخ إيران)، ولا علاقة لهذه النبذة بالكورد.

٣ـ مكري: نادرة في الشجاعة والبسالة رواها أحد الفرنسيين ممن سمع بالواقعة سنة ١٦٠٥، وموضوع النبذة هو شجاعة بعض الكرد أثناء أيام الشاه عباس الصفوي، وتشغل الصفحات ٢٣- ٢٦.

٤ـ اللغة الكوردية الحالية، نبذة قصيرة تضم ملاحظات مستقاة من بعض المصادر الفرنسية.

٥ـ اللغة الكوردية. وهو بحث في ٢٤ صفحة، يشغل الصفحات ٢٧- ٤١، ذكر عنها مؤلفها الكرملي أنه عربها ولخصها من أوثق المصادر الفرنسية والإنكليزية، ونحسب أنه اعتمد عليها في كتابة الفصل الخاص باللغة الكوردية وآدابها اللغوية في كتابه الآخر (تاريخ الكورد).

ويلاحظ أن بحثه الأخير يؤلف رسالة قائمة بذاتها، وهي تمثل جهداً كبيراً في تتبع أهم الدراسات التي كتبها علماء أوربيون، في تاريخ اللغة الكوردية، وهو ينطلق في بحثه من نقد موضوعي لما كان يردده بعض الرحالين الأوربيين الذين قدر لهم المرور في

شعاب كوردستان، حول طبيعة هذه اللغة، وهو يقول ناقداً تلك الأقوال: (كان الرحالون يعتبرون اللغة الكوردية خشنة، أو لهجة مشوهة أو مصحفة من لهجات اللسان الفارسي، ولا يفهمها إلاّ الأقوام الذين تعلموها منذ الصغر، فينطقون بها حسبما تدفعهم إليه السليقة) يعني أنهم يقصدون بذلك أن الكردية لغة لا آداب فيها، ولا قواعد يمكن تعلمها، ثم يذكر الكرملي أن بعض أولئك الرحالين ذهبوا: (إلى أنها لغة مصطفة مركبة من ألفاظ فارسية وأرمنية وتركية)، وبعد أن يستعرض هذه الأقوال التي تنم عن جهل قائليها، نجده يقرر أن هذه الآراء: (ليست في شيء من الصواب، لأنه قد ثبت بعد البحث الدقيق أنها حرية بأن تعد بين اللغات المتسعة القائمة بذاتها، من قبيل التركية والفارسية عينهما). ويعين الكرملي علاقة الكوردية بالفارسية، ويقرر بثقة أن الأولى هي لغة (قدماء الماذيين)، يريد بهم الميديين، فيقول: (غير خاف أن قدماء الماذيين والفرس كانوا يتكلمون بلغتين مختلفتين، وهما الماذية أو الآفستية، والفارسية القديمة، وهي لغة الرقم، بيد أن كلتا اللغتين قد نمت واتسعت على حدة بمعزل عن أختها، وتغيرت عما كانت عليه في بادئ أمرها، على أن الفارسية قد دخل فيها قدر وافر من الألفاظ العربية، على مثال ما طرأ على اللغة الإنكليزية السكسونية من تطرق الألفاظ اللاتينية واليونانية إليها، فتولدت منها اللغة الإنكليزية الحالية، أما الكوردية فبقيت مُباينة للفارسية في شيء، ومشابهة لها في شيء آخر، فخالفتها في منع الدخيل من أن يتسرب إليها، وجارتها في غير ذلك من الأصول اللغوية والنحوية، فغالباً تجد في الكردية عبارات أو اصطلاحات قد أتتها من أختها الفارسية، لكنها في الوقت عينه قد احتفظت لذاتها بطرائق من التعبير والإنشاء مما خولها مزية جعلتها لغة قائمة بنفسها، مختلفة عن الفارسية المركبة اختلاف الكردية الدارجة عينها عن اللغة الفارسية الفصحى). فميزة الكوردية عند الكرملي هي في حفاظها على استقلال لغوي فذ تختلف فيه عن كثير من اللغات الحية، وهو هنا يقرر بأن: (اعتزال اللغة الكردية وعدم امتزاجها بلغة أخرى كان الطريقة الفعالة لصيانتها، والذي نتج عن ذلك من باب الضرورة هو نمو وترقي اللهجات الأخرى الشائعة في الجبال المنقطعة حيث كان مقر الأمة الكردية). ويرى الكرملي، أنه على الرغم من القلة النسبية في الآثار الأدبية لهذه اللغة، فإنه لا شك في أن (هناك لساناً كردياً فصيحاً بليغاً خالصاً من كل شائبة، وهو شائع في قلب البلاد الكردية، وخليق بأن يوضع موضع الأساس لبقية اللهجات العديدة).

وانسياقاً مع نظرية أن اللغة كائن حي بحياة الناطقين بها، يحاول الكرملي في بحثه أن يربط بين المكونات الأولى للشعب الكوردي وبين الانتشار الذي أصابته لغته فيقول: (يظهر من التغيرات التي حدثت أثناء الألفي سنة الأخيرة في الديار التي عامة سكانها أو أكثرهم من الكرد، إن هذا الجيل قد قطن الأصقاع الواقعة بين أورمية وبحيرة وان والجبال التي تنبع منها عيون كبار أنهر مواطن القبائل اللورية أو عشائر الكوران والأردلان المعروفة اليوم باسم الكرد، ففي داخل حدود هذه البلاد يتكلم الناس لغة اسمها (كردماه)، أو (كردمانج)، بيد أنه لما أخذ يأفل نجم الممالك القوية المحيطة بها لم يكن من أولئك الأقوام المغاوير إلاّ أن اندفعوا نحو الغرب والشمال إلى أن استقروا حيث يرون اليوم، أي في بيازيد التي بقيت زمناً طويلاً في حوزة البكات الكرد، فهي مدينة كردية صرفاً، وفي أرضروم وأرزنجان والجبال الواقعة شمالي حلب). ولا يحدد الكرملي زمن حدوث تلك الهجرات، وما هي الممالك العظيمة التي يقصدها. وهو هنا يقرر أن جميع تلك الأقوام كانت تتكلم باللغة الكرمانجية، التي هي عنده اللغة الكوردية الأصيلة، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قبائل أخرى تتكلم لهجات كردية مختلفة فيقول: (إن بعض العشائر القاطنة بين الكرد قد سميت لذلك كردية، ودعا الافرنج والترك لغتهم لهجة كردية، وأعلى هذه القبائل شأناً هي قبيلة الزازه

بفروعها المنتشرة في أواسط وجنوب كردستان).

ويرى الكرملي أن لغة الزازة هي لغة إيرانية بحتة لكنها مشابهة للكوردية (في الاصطلاحات النحوية وانتقاء الألفاظ، ولها بعض المضارعة للغة الكوران واللوران)، ثم نجده ينتهي إلى القول بأن الزازه (فرع من الشعوب الزرداسترية (الزرادشتية) المتأخرة النازلة بلاد إيران [و] وتركية، وفي ولاية درسيم من آسية [لعله يقصد آسية الصغرى تحديداً، وهي مقاطعة قريبة من ديار بكر ونهر الفرات، معظم سكانها من الكورد] يوجد بين القبائل الكردية والزازية قبيلة البلاكية ولغتها خليط من العربية والأرمنية والكردية).

وبعد هذا العرض السريع للهجات الكوردية، يتوصل الكرملي إلى أن: (أقرب الأقوام الكردية من الأصل الكردي، هم ـ ولا بدع - قبائل الهكارية والمُكرية)، ثم هو يسند ما توصل إليه بكثرة من خرج من (بلاد الهكارية) من الشعراء الذين نبغوا في العصور الوسطى، وفي مقدمتهم الشاعر علي حريري الذي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد [قلنا: ولد سنة ٤٠٠ وتوفي سنة ٤٧١هـ/ وله ديوان بالكوردية]، في ولاية شمسيدينان [شمدينان] من البلاد الهكارية، والشاعر أحمد الجزيري من الهكارية، وقد عاش في القرن الثاني عشر للميلاد ، والشاعر محمد فقي طيران، وقد عاش في القرن الرابع عشر للميلاد، والملا أحمد من بانه الهكارية، وله، كما يذكر (تآليف في غاية الشهرة يدعى المولود، أي قصة ولادة النبي). ويرى الكرملي أنه في عصر هذا الشاعر انتشر الهكارية حتى وصلوا بيازيد واستوطنوا فيها، وظهر منهم هناك أشهر شعراء الكورد ومؤلفيهم في القرن السادس عشر، ألا وهو أحمدي خاني من الهكارية، ومصنفاته في التهذيب وغيره كثيرة، وهو يذكر في ترجمته أنه (اسس في بيازيد مدرسة وشيد جامعاً، وله معجم مدرسي منظم عربي وكردي، مخطوط محفوظ في دار التحف البريطانية [يريد مكتبة المتحف البريطاني]). وأحمد خان هذا هو أحمد خاني، الذي ولد سنة ١٠٠٠ وتوفي سنة ١٠٦٣هـ، وهو ناظم (مم وزين) إحدى عيون الأدب الكوردي، وقد طبعت غير مرة، وأما معجمه المذكور فقد طبع هو أيضاً.

ويرى الكرملي أن ظهور مولانا شرفخان البدليسي يعد دليلاً آخر على عراقة الكردية في هذه الأنحاء فيقول: (وفي آخر ذلك القرن ولد من يكاد يكون أشهر كتاب الكرد، وهو شريف خان [كذا يقصد شرف خان] الهكاري، وقد كتب في اللغة الفارسية تاريخ الكرد المدعو شرفنامه، وهو حتى اليوم من أثبت الأسانيد لتاريخ هذه الأمة، وما عدا ذلك فقد صنف عدة تآليف وقصائد باللغة الكوردية). ويلي هذا من الشعراء مراد خان البيازيدي الهكاري، (ولكن شهرته لم تكن عظيمة، وتوفي سنة ١٧٨٤م) بحسب قوله، وذكر المرحوم محمد أمين زكي أن أشعاره كانت باللغة الكرمانجية، ومعظمها في الغزل والرثاء. ثم ينتقل الكرملي إلى الجنوب، ويقصد به ما يسمى بكوردستان الشرقية والجنوبية، فيذكر أنه: (ظهر فيه شعراء كثيرون في ديار الخانات الكوران، في مدينة سنا من أردلان، ولكنهم نظموا جميعاً بلغة الكوران، ولم يقم شعراء كبار في جنوب كردستان حتى آخر القرن الثامن عشر في السليمانية، وذلك منذ أصبحت هي وأختها كركوك مقر كثير من الكتاب والشعراء الكبار والصغار، الذين يضيق المقام عند ذكرهم لكثرتهم). وبهذا يختتم الكرملي حديثه عن اللغة الكوردية. وعلى الرغم من أن بعض ما أورده من الآراء ربما كان يحتاج إلى مراجعة، فإن جهوده اللغوية تبقى تحتفظ بأهميتها حتى اليوم، نظراً لأنها جاءت في وقت كانت فيه الدراسات اللغوية الكوردية ما تزال قليلة، أو غير متكاملة، وإنه توصل، إلى أن اللغة الكوردية لغة عريقة، لها كيانها، ولها آدابها الخاصة، وأنها تميزت بقدرتها على البقاء مستقلة على خلاف غيرها من اللغات.

ملحوظة: توجد اخطاء لغوية في النصوص التي اقتبسها الكاتب، فأبقيناها كما هي، صونا للامانة العلمية. «سردم العربي»